

كتاب الشهر

قصص جديدة لـ "نوبل" المصري بعد 13 عاماً على رحيله نجيب محفوظ من عالم الغيب... يسامر النجوم

انه الكاتب العربي الوحيد الذي فاز بـ "جائزة نوبل للاداب" (1988)، وقد لقب بـ "عميد الرواية العربية". ها هو يعود الى الواجهة من خلال صدور مجموعة قصصية له لم تنشر في كتاب من قبل. صحیح ان "همس النجوم" التي تحوي 18 قصة، لا تبعد عن عوالم نجيب محفوظ التي الفناها، الا انها تختلف ايضا عن اعماله السابقة لناحية الاسلوب والنضج الفكري، خصوصا وانه كتبها في اخر سنوات حياته

يبدو نجيب محفوظ (1911 - 2006) مثل جبل الجليد العائم. لا تظهر سوى قمته، بينما الجانب الاكبر منه مخفي. الغوص بحثا عن الجزء المخفي من الجبل، هو ما حاول ان يقوم به الكاتب والصحافي المصري محمد شعير، بحثا عما لم يقله محفوظ في اعماله الروائية وسيرته. خلال رحلة البحث هذه، وقع على مفاجآت عدة، ربما اهمها "صندوق محفوظ الخفي" الذي يشبه صندوق باندورا في الاساطير الاغريقية. لكن خلافا لباندورا، فان صندوق محفوظ لا يحمل شرور العالم، اما يحمل اوراقا ومخطوطات، ورسائل وقصصا وروايات. كنز ادبي، يمكن ان يقدم رؤى نقدية مختلفة وجديدة عن عالم عميد الرواية العربية.

احتوى الصندوق على ملف يضم حوالى اربعين قصة قصيرة كتب عليه محفوظ بخطه: "تحت التجربة: يتحدد الطول والنوع والمعالجة". ثم شطب هذه الجملة ليكتب: "قصص منشورة تمت كتابتها (1993 -

1994). القصص جميعها تم نشرها في مجلة "نصف الدنيا" المصرية. وقد اختار محفوظ وناشره بعضها كي تصدر في اخر مجموعة قصصية له في حياته، تحت عنوان "صدى النسيان". هكذا بقيت ثماني عشرة قصة قصيرة في ظلمة الادراج، ولم تدرج ضمن الاعمال الكاملة في طبعاتها المختلفة. هذه القصص هي التي اصدرتها "دار الساقى" في بيروت اخيرا تحت عنوان "همس النجوم".

المفارقة، حتى وان بدت غير مقصودة، ان اولي مجموعات محفوظ القصصية كانت تحت عنوان "همس الجنون" (1938)، فيما الفارق بينها وبين مجموعته الاخيرة

ادب محفوظ الذي ابدع في نقل نبض الحارة المصرية بواقعيته الفجة وشخصياتها الطيبة والشريرة على حد سواء، واستلامها للايمان الغيبي والشعوذة.

شيخ الحارة بطل اساسي في معظم قصص مجموعة "همس النجوم" التي حملت قصصها عناوين "نبقة في الحصن القديم"، و"نبوة غملة"، و"سر اخر الليل"، و"مطاردة"، وغيرها. شيخ الحارة هو ممثل السلطة، تكمن مهمته في ابقاء الوضع على ما هو عليه، بالنسبة اليه، يجب ان يكون الامن مستتباً، حتى لو ارتفعت همسات اهل الحارة من اجل تغيير الاوضاع القائمة. لكن في الحارة ايضا ثمة هاربون من ثأر، او من تقاليد قديمة، واحيانا من اجل الحب او العمل. هناك ايضا عائدون بعد ثراء، او بعد حكمة وكشف، هم "المجاذيب" او اهل الخطوة، كما يلقبون. وهم دائما اصحاب النبوءات والاقوال الملتبسة التي يتبادلها ابطال القصص، تتحقق على نحو ما، ويكون مصيرهم دائما الاتهام بالجنون او الخروج على التقاليد.

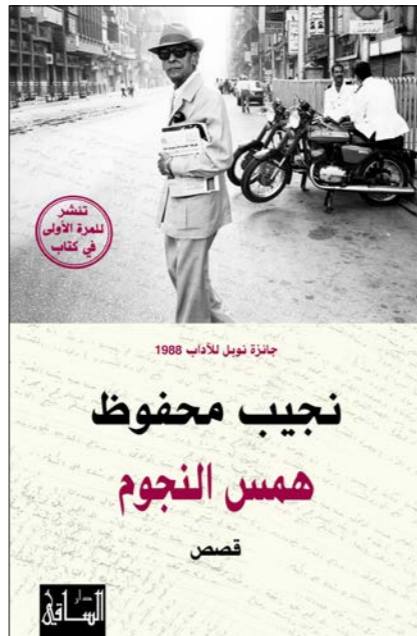
في قصة "شيخون" التي تضمها المجموعة مثلا، يعود شيخون محملا بالكرامات، ويعمل على علاج المرضى، ويتحلق حوله العشاق والمريدون، بعد غيبة طويلة عن الحارة، وفقر مدقع في الماضي، ليتم الكشف عن سر الغيبة في النهاية، من خلال رجال مستشفى المجاذيب الذين يطاردونه.

"نبقة" ايضا من ابناء الحارة، هو الابن الاخير لادم السقا الذي فقد ابناءه التسعة بسبب وباء، ولم يبق له الا نبقة. هذا الامر يدفع الاب الى تسليم ابنه الى امام الزاوية، ليتعهد

بالتربية، ويتشرب قلبه النور والبركة. يكبر الابن ويثبت امانته، وهمته، ونشاطه، لكنه يغيب على اثر زيارة الى قبر والديه. ثم يعود بعد ثلاثة ايام محملا بمعرفة وقدرة اهداها له الراحلون كما يقول. يصير "نبقة حديث كل الحارة" حيث يصارح الشيخ معلمه بحقيقته: "لم اعد اصلح لكون خادما لك ولا انت تصلح لتكون سيدا لي". باغت نبقة الناس بجرأة لم يتصور احد ان تصدر عن صبي في سنه، ولا حتى من رجل مجنون. هنا، يعترض كثيرون من وجوه الحارة. يبدأ نبقة كلامه عادة بقوله "اخجل من نفسك"، او "كيف سولت لك نفسك ان تفعل ذلك؟"، او "اما زلت تتظاهر بالوقار؟". وعقب تلك الافتتاحية، يذكر فضيحة من الفضائح الاخلاقية او المالية في الحارة، فيسبب الصخب والغضب. ويتساءل اهل الحارة: "من اين يجيء ذلك الصبي بتلك الاسرار؟". وقد ذهب بهم سوء الظن كل مذهب. ووقعت فتن وخصومات وانتشر القلق اйма انتشار. قيل بحق ان الحارة ركبتها عفريت. يواصل محفوظ سرد حكاية "نبقة". فبعد معركة كبرى جرت بسببه في الحارة وقيل ان نبقة قبض عليه، وقيل "ان الاقدام داسته. اما سكان القبو، فقد اكدوا انه حي وانهم رأوه يتجول في ما وراء القبو، وانه كان مع كل خطوة يكبر ويتضخم ويتعملق ويمتد في جميع النواحي حتى تعذر عليهم ان يروا رأسه المنطلق في الفضاء. وما زال قوم يعتقدون انه مقيم حتى اليوم في الحصن القديم".

ربما تتماس اساطير وشخصيات الحارة مثل شيخون ونبقة وغيرها مع قصص مشابهة في التراث الديني الذي افاد منه محفوظ في روايته الاشهر "اولاد حارتنا". فكل العائدين الى الحارة اي شيخون ونبقة، يقف امام سلطة الحارة وما يمثلها، ويسأل اهلها عن العدل الغائب.

الزمن بطل رئيس في الاحداث، تماما كما كانت "اولاد حارتنا". مثلا، في قصة "توحيدة" جميلة جميلات الحارة، يعصف الزمن بجمالها، فتقول للراوي: "اذا كنت لم تعرفني، فليس الذنب ذنبي؟". يستعيد محفوظ توحيدة هنا بعدما كتب عنها من قبل في



غلاف الكتاب.

نجيب محفوظ اديب الحارة الشعبية ومجانيها

شيخ الحارة بطل اساسي، وحواله هاربون من ثأر، او مدافع الحب او العمل

"حكايات حارتنا" بانها اول موظفة في الحارة تذهب الى الوزارة وتخالط الرجال!

يختبر محفوظ في قصصه الحارة في كل احوالها، عندما تهب عليها "العاصفة" التي تقتلع كل شيء، ويعم الخراب والنهب والسلب، وتضيع الاموال وتهتك الاعراض. يختبرها عندما يدهم البكاء اهلها - فجاة - ويصيب الجميع، وينتقل كالعدوى، يتحرك مفتش الصحة في محاولة لكشف الاسباب، ويكاد ان يبكي هو الاخر. لكن محفوظ في رهانه هذا، يبحث عن "قلة ممن ظلت

ثيابهم بيضاء، يتبادلون الهمس والشد على الايدي في الظلام، ويتطلعون بعزم ونفاد صبر، الى طلوع الفجر...". او عن تلك النخمة الراقصة التي تتهادى من بيت "حسن الالائي" ليرقص الجميع ويتوقف البكاء.

هكذا تستمر الحياة، كما يراهن محفوظ دائما في الحديقة والناي والغناء، بهؤلاء الباحثين عن مشرق النور والعجائب، بالفن الذي يبقى رهانه الابد.

بالتأكيد، كتب محفوظ قصصه في تلك المرحلة، اي في سنواته الاخيرة، لتأتي مكثفة، خالية من كل الزخارف اللغوية، او الشحوم البلاغية، مع استبعاد كل ما يمكن ان يعوق السرد. كل كلمة اختارها بعناية، ربما كان ذلك لاسباب صحية، او فنية جمالية.

وهو الامر الذي يسميه المنظر والمفكر الفلسطيني الراحل ادوارد سعيد "الاسلوب الاخير" او "المتأخر". اذ يشير سعيد في كتابه "افكار حول الاسلوب المتأخر" (ترجمة فواز

طرابلسي) الى ان "الفترة الاخيرة من الحياة - لاسباب شخصية بديهية - فترة تحلل الجسد واعتلال الصحة او حلول عوامل اخرى،

تحمل امكان النهاية قبل الاوان حتى لمن لم يتقادم به العمر"، مركزا في هذا الكتاب على كبار الفنانين وكيف اكتسى كلامهم وفكرهم في نهاية حياتهم، لغة جديدة. وهو ما سوف يسميه الاسلوب المتأخر. في تلك الفترة، يختار المبدع ان يعود الى عوالم خارج زمانه بالكامل، الى "اسطورة قديمة او الى انواع ادبية عتيقة مثل الملحمة او الى الطقوس الدينية القديمة". "المفارقة ان معنى الحدائة لا يبدو هنا حركة التجدد بقدر ما هو حركة شيخوخة ونهاية. انه نوع من شيخوخة تنتكر بالشباب". يضيف ان "تعب الشيخوخة في حضرة الموت الداهم والمشتهى ليس حزنا. انه اعرق بكثير من الحزن. الامتياز العظيم الذي يتمتع به الفن، هو انه يثير مشاعر لا اسم لها تمزقنا اربا".

18 قصة، بعضها يشغل صفحة واحدة في المجموعة، كلها محملة بالرمزية التي اشتهر بها نجيب محفوظ الذي نحت شخصياته وابطاله، وحملهم دلالات وامثولات نكتشفها مع نهاية كل قصة.